نديّةُ الكلْبِ

قراءة في كتاب "تفضيل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب" لابن المرزبان

dogs competitive

Reading in the book “Dogs are preferred over many who wear clothes” by Ibn Al-Marzban

د. مجدي بن عيد بن علي الأحمدي

جامعة تبوك–المملكة العربية السعودية-mealahmadi@ut.edu.sa

تاريخ الإرسال:.2023/01/01	تاريخ القبول:2023/03/28	تاريخ النشر: 2023/03/30

الملخص: قال الله تعالى في سورة الإسراء آية (70): ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾، فمن نعم الله أنّ خصّ البشر بخلقٍ يرفعه عن سواه ممّن يدبُّ على وجه الأرض، لكنّ الكثير من البشر يأبون إلّا أنّ يكونوا دون البشرية من خلال صفات، وأخلاقٍ؛ تجرّدهم من الطبيعة التي منحهم الله إياها، وعلى ضوء ذلك تقف الدراسة على مؤلَّفٍ موسوم بـ"تفضيل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب" لصاحبه ابن المرزبان، وتكمن أهمية الدراسة في طرافة الموضوع؛ الملازمة للسخرية، والتهكم من أفراد لا حصر لهم، وعليه تهدف الدراسة إلى تجلية نديّة الكلب.

خلصت الدراسة إلى أنّ المؤلّف يُثبت فضل الكلاب من خلال سرد القصص، والقصائد، وهي نتيجة بارزة تتجلّى من العنونة، إلّا أنّ نديّة الكلب–وفق ابن المرزبان–تجلّت في منطلقين؛ المنطلق الأوّل: تفوّق الكلب على الإنسان في الموازنات؛ التي عقدها بينهما، في حين جاء المنطلق الثاني في الصفات التي يتفرّد بها الكلب، وكانت القصص داعمة لما يراه ابن المرزبان.

الكلمات المفتاح: ابن المرزبان، نديّة، كلاب، تفضيل، عنونة.

Abstract : And We have certainly honored the children of Adam and carried them on the land and sea and provided for them of the good things and preferred them over much of what We have created, with [definite] preference, One of God's blessings is that He singles out humans with a creation that raises them above others who move on the face of the earth, but many people refuse to be below humanity through attributes and morals. Stripping them of the nature

that God has bestowed on them, and in the light of this, the study stands on a book tagged with “preferring dogs over many who wear clothes” by its author Ibn al-Marzban. The importance of the study lies in the novelty of the subject. The inherent sarcasm and sarcasm of countless individuals, and accordingly the study aims to reveal the dog's competitive.

The study concluded that the author proves the virtue of dogs by telling stories and poems, which is a prominent result evident from the title. However, according to Ibn al-Marzban, the dog's rivalry and superiority was manifested by two hypotheses; The first: the superiority of the dog over the human in comparisons. which he held between them, while the second came in characteristics unique to the dog, and the stories were supportive of what Ibn al-Marzban saw..

Keywords: Ibn al Marzban, Dog's, Competitive, Preference, Title

1. مقدمة:

مازال التراث رافدًا لا ينضب، فالباحث لا يتجاوز التراث دون فكرة أو موضوع بحثي؛ ينطلق منه إلى عالم من الدلالات، والمقاصد، وتخيّرت الدراسة مؤلّفًا لابن المرزبان (ت 309 هـ/921 م)، هو "تفضيل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب"، وتكمن أهمية الدراسة في تناول كتابٍ تبرز فيه جُرأة الطرح عند ابن المرزبان، وعليه تهدف الدراسة إلى:

-الكشف عن دلالات العنونة.

-تقديم نبذة عن الكتب؛ التي تطرّقت إلى الكلب.

-تجلية المرتكزات الرئيسة في ندّيّة الكلب للإنسان، والتي بنى عليها ابن المرزبان موازنته الساخرة.

فالدراسة تسعى إلى الإجابة عن سؤالين مركزيين، هما:

-ما هي المرتكزات الرئيسة التي انطلق منها ابن المرزبان في تفضيل الكلاب؟

-هل الدافع من تأليف الكتاب يقف عند حدود ما ذكره ابن المرزبان؟

وعلى ضوء ذلك جاءت الدراسة في:

- مدخل: يضمُّ في ثناياه نبذة موجزة عن الكتاب، وعرض للكتب التي تطرقت لهذا الحيوان، والكلب في التراث.

-قراءة لعنوان الكتاب.

-المفاضلة بين الكلب والإنسان.

-تفرّد الكلب بالصفات، ومنزلته.

-القصص الواردة عن الكلاب.

-خاتمة: تُفصح عمّا وصلت إليه هذه الدراسة.

وعليه تتبنى الدراسة المنهج الوصفي عمادًا لها في هذه الدراسة مع الاستعانة بما يفيد الدراسة من أدوات تنتمي إلى مناهج أخرى.

وفيما يتعلّق بالدراسات السابقة، فالباحث-على حد اطلاعه-لم يقف إلّا على مقالات؛ تكتفي بإعادة عرض ما جاء في الكتاب أو تستشهد بقصص منه.

2. مدخل:

يُعدُّ كتاب "تفضيل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب" من ضمن مؤلفات عدة؛ لأبي بكر محمد بن خلف بن المرزبان بن بسّام المِحَوَّلي[1]، "كان أحد التراجمة ينقل الكتب الفارسية الى العربية، له أكثر من خمسين منقولا من كتب الفرس، وله بضعة عشر كتابا في الأوصاف منها :وصف الفارس والفرس. ووصف السيف. ووصف القلم. وله الحاوي في علوم القرآن سبعة وعشرون جزءا. وكتاب الحماسة. وأخبار عبد الله بن جعفر بن أبي طالب"[2]، فالمتتبع لنتاجه يلمس ميل ابن المرزبان إلى تسجيل المظاهر الحياتية، والطباع البشرية في مجموعة من مؤلفاته، منها: "الجلساء والندماء، وذُم الثقلاء، ومن غدر وخان، ومن توفي عنها زوجها فأظهرت الغموم وباحت بالمكتوم"[3]،

يحظى كتاب "تفضيل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب" بشهرة كبيرة؛ وذلك بسبب عنوانه الطريف، ومحتواه المغاير للمتوقع، ففيه نظرة للآخر وأذاه[4]، وهذا "الكتاب هو الأوّل من نوعه في التراث الإسلامي، وقد اعتمد عليه أبو الفرج الأصفهاني كثيرا في كتابه الأغاني"[5]، وكانت النسخة الأولى مكتوبة عام 1252م[6]، وظهرت في مجلة "المشرق" عام 1912م؛ موسومة بـ"فضائل الكلاب"[7]، وهناك نسخة أخرى متوفرة في خزانة مخطوطات برلين العربية تاريخها يعود لعام 1639م[8]، ثم بدأت تظهر النسخ المحقّقة، منها: النسخة الصادرة عن "المكتب الإسلامي 1990م، وقام بتحقيقها زهير الشاويش، والنسخة المعتمدة في هذه الدراسة.

البحث عن دافع تأليف الكتاب؛ ربّما يبدّده ابن المرزبان بقوله:" ذكرت-أعزك الله-زماننا هذا، وفساد مودة أهله، وخسة أخلاقهم، ولؤم طباعهم، وأن أبعد الناس سفرًا من كان في سفر طلب أخ صالح، ومَن حاول صاحبا يأمن زلته ويدوم اغتباطه كان كصاحب الطريق الحيران الذي لا يزداد لنفسه إتعابا إلا ازداد من غايته بعدا، فالأمر كما وصفت"[9]، والكتاب يفتقر إلى التنظيم، فليست له أبواب محددة، إذ يعتمد على المزج بين الشعر والنثر، مع غلبة النثر، ولعلّ هذا الأمر يعود إلى أنّ ابن المرزبان يعتمد على عنونة تكشف ما يُريد الإفصاح عنه، فكان الكتاب وسيلة إلى إبراز هذا التفضيل من خلال سرد ما يُثبت ذلك؛ دون حاجة إلى تبويب أو تقسيم.

1.2. الكلب في التراث العربي:

لا يخلو التراث العربي من حضور هذا الكائن الحيّ، ويمكن بيان هذا الحضور على النحو الآتي:

1.1.2. القرآن الكريم: ورد الكلب في المواضع التالية:

- في قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنْ الْغَاوِينَ*وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[10]

-في قوله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾[11]، وقوله جلَّ شأنه: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ ما يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ فَلا تُمارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِراءً ظاهِراً وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً﴾[12]

-سورة المائدة في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللّهُ فَكُلُواْ مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُواْ اسْمَ اللّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[13].

ففي الموضع الأول تبرز صفة تلتصق بالكلب، يقول ابن قتيبة (ت 276هـ/828م): "كلّ شيء يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطش أو علّة، خلا الكلب، فإنّه يلهث في حال الكلال، وحال الرّاحة، وحال الصحة والمرض، وحال الريّ والعطش"[14]، في حين جاء في الموضع الثاني مرتبطا بقصة أهل الكهف، وهي صحبة تسمو بقيمة الكلب، وأمّا الموضع الثالث؛ فتعلّق بمنفعة يعود بها على أصحابه.

2.1.2. السنة النبوية: ورد ذكر الكلب في الأحاديث النبوية، ومنها:

-عن عبد الله بن مغفل -رضي الله عنه- أنَّ رسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم- قال: "لولا أن الكلابَ أمةٌ من الأممِ لأمرتُ بقتلِها، فاقتلوا منها الأسودَ البهيمَ، وَمَا مِنْ أَهْلِ بَيْتٍ يَرْتَبِطُونَ كَلْبًا إِلَّا نَقَصَ مِنْ عَمَلِهِمْ كُلَّ يَوْمٍ قِيرَاطٌ إِلَّا كَلْبَ صَيْدٍ أَوْ كَلْبَ حَرْثٍ أَوْ كَلْبَ غَنَمٍ"[15]

-عَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُتْبَةَ، أَنَّهُ سَمِعَ ابْنَ عَبَّاسٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا طَلْحَةَ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "لَا تَدْخُلُ الْمَلَائِكَةُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ وَلَا صُورَةٌ تَمَاثِيلَ"[16].

-عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "طُهُورُ إِنَاءِ أَحَدِكُمْ إِذَا وَلَغَ فِيهِ الْكَلْبُ أَنْ يَغْسِلَهُ سَبْعَ مَرَّاتٍ، أُولَاهُنَّ بِالتُّرَابِ"[17]

يتبيّن أنّ ذكر الكلب في السنة النبوية؛ يُثبت أن الكلاب أمُّة لا يجوز قتلها إلّا في حالات محددة، ثمّ يتم التفصيل في حكم اقتنائها، ونجاستها.

3.1.2. الشعر: ورد ذكر الكلب في غير موضع، منها:

-ما تعلّق بالهجاء مثل قول روح بن زنباع (ت 84هـ) في ذمِّ امرأته:

ريح الكرائم معروف له أرج وريحها ريح كلب مسّه مطر[18]

وقول اللعين المنقري (ت 75هـ):

سأقضي بين كلب بني كليب وبين القين قين بني عقال

فإنّ الكلب مطعمه خبيث وإنّ القين يعمل في سفال

كلا العبدين- قد علمت معدّ لئيم الأصل من عمّ وخال[19]

-ما تعلّق بالمدح، مثل قول علي بن الجهم:

أنتَ كالكلبِ في حفاظِك للوُدِّ وكالتَّيْسِ في قِراعِ الخُطوبِ[20]

وقول الشافعي:

لَيتَ الكِلابَ لَنا كانَت مُجاوِرَةً وَلَيتَنا لا نَرى مِمّا نَرى أَحَدا

إِنَّ الكِلابَ لَتَهدي في مَواطِنِها وَالخَلقُ لَيسَ بِهادٍ شَرُّهُم أَبَدا

فَاهرُب بِنَفسِكَ وَاستَأنِس بِوِحدَتِها تَبقى سَعيداً إِذا ما كُنتَ مُنفَرِدا[21]

4.1.2. الكتب: كان الكلب ذا حظٍ في غير مؤلَّفٍ، فجاء ذكره في عدة مؤلفات منها:

-كتاب "الحيوان" للجاحظ (ت 255هـ/869م): "وقد دافع الجاحظ عن الكلب في كتابه، ولو بلسان غيره أي صاحب الكلب، وأبان محاسنه وصفاته الحميدة، وحكى بعض في وفائه بقصة كلب أهلّ الكهف"[22].

-كتاب "نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة" للتنوخي (ت 384هـ/994م): اعتمد على قصص ابن المرزبان، لكنه لم يُفضّل الكلاب، "بل اكتفى بالدفاع عنها وحسب"[23]

-كتاب "حياة الحيوان الكبرى" للدميري (ت 808هـ/ 1405م): أورد الكثير من القصص عن الكلاب، فذكر قصصا لم ترد عند الجاحظ وابن المرزبان، كما جعل الكلب رمزًا للقوة والإخلاص والأمانة[24].

يمكن بيان توجهات النماذج السابقة-التي أولت الكلب نصيبا من التأليف-وفق الشكل الآتي:

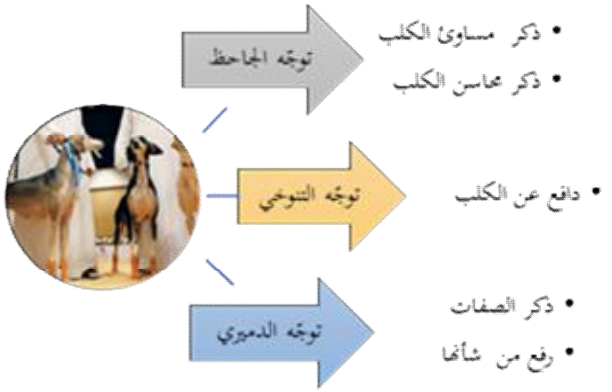

الشكل رقم (1) توجهات الكُتّاب في ذكر الكلب[25]

يتبيّن أن ذكر الكلب لم يغب الذهن العربي، بل أنّ السيوطي (ت 911/1505م) نظم أرجوزة "التبرّي من مَعرَّةِ المعَرِّي"؛ ذكر فيها أربعة وستين اسمًا للكلب[26]، وفي هذا التقديم لحضور الكلب في التراث العربي؛ يتجلّى أن هذا الحيوان يتصف بصفات أدّت إلى انشغال غير مؤلّفٍ به، ممّا يعكس قيمته، ولعلّ ابن المرزبان يقف في مقدّمة من يرفعون قدر الكلب، فجاء مؤلّفه "تفضيل الكلاب..."إنصافًا للكلب، وحطًّا من قدر البشر، فتجلّت ندّية الكلب للإنسان من خلال المحاور التالية:

3. العنونة:

تبُرز العنونة سمة المعنون، فتُظهره للمتلقي، ممّا يترك أثرًا على المتلقي، قال ابن سيده (ت 458هـ/1066م): "العُنوانُ والعِنوان سمةُ الكتابِ، وعنونَهُ عنونةً وسمهُ بالعنوانِ"[27]، فالمعاجم تتفق على أنّ العنوان يحمل "دلالات أساسية هي ظهور العلانية"[28]، والعنوان اصطلاحًا عبارة عن "أنظمة دلالية سيميائية تحمل في طياتها قيماً أخلاقيةً واجتماعيةً وإيديولوجيةً، وهي رسائل مسكوكة مُضمنة بعلامات دالَّة مُشبعة برؤية العالم يغلبُ عليها الطَّابع الإيحائي"[29]، فيُميّز العمل عن غيره، ويمنحه خصوصية[30]؛ تُسهم في تفاعله مع تأويل المتلقي [31].

لا بدّ من الإشارة أن الكتاب ظهر في ثلاث عنونات، هي:

1-تفضيل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب.

2- فضل الكلاب على أكثر ممن لبس الثياب[32].

3- فضائل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب[33].

ما يعني الباحث هو العنوان الوارد في النسخة المستهدفة بالدراسة، وهو العنوان الأوّل؛ لأنّه أقرب لمضمون الكتاب، ودافع التأليف، فيُفصح العنوان عن مفاضلة بين الكلاب والإنسان، فالمفاضلة من الجذر اللغوي "فضل: والفَضْل والفَضِيلة معروف: ضدُّ النَّقْص والنَّقِيصة...والفضيلة الدَّرَجة الرفيعة في الفَضْل، والفِضَال والتَّفاضُل: التَّمازِي في الفَضْل، فالتَّفاضُل بين القوم: أَن يكون بعضهم أَفضَل من بعض"[34]، فالدلالة اللغوية تكشف عن مقارنة تنتهي بتفضيل شيء على آخر، ويمكن تقسيم العنوان إلى ثلاثة أقسام؛ تتبدّى في الشكل الآتي:

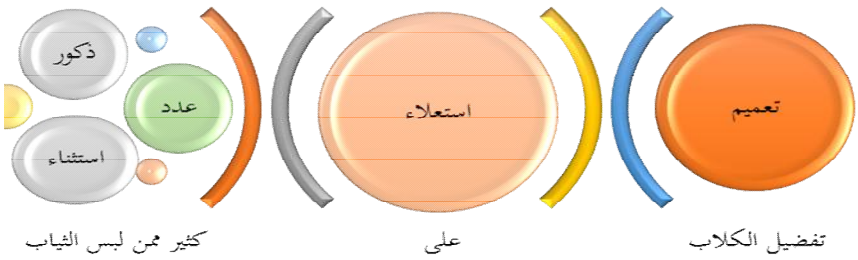

الشكل رقم (2) مكونات العنوان

يتجلّى في الشكل السابق أنّ العنوان مع طرافته ووضوحه إلّا أنّه لا يخلو من دلالات يمكن بيانها على النحو الآتي:

- **القسم الأوّل**: يتكوّن من جزأين؛ هما:

أ- تفضيل: يكشف عن ترجيح طرف على آخر، وفيه حكم قطعي لا يقبل النقاش.

ب- الكلاب: جمعٌ يدلُّ على غياب الاستثناءات، فالتعميم يبرز من خلال تفضيل الكائن دون استثناء فردٍ من جنسه.

-**القسم الثاني**: حرف الجرّ (على)، وهو دالٌّ على الاستعلاء، فيؤكّد على علو هذا الحيوان، فما يحمله من فضائل؛ أدّت إلى علوه على جنس أفضل منه، قال الله تعالى ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[35].

-**القسم الثالث**: يتكوّن من جزأين؛ هما:

أ- كثير: تُفصح عن عددٍ لا حصر له.

ب- ممّن لبس الثياب: تكشف عن تفضيل الكلاب على جنس الذكور دون الإناث.

يتبيّن أنّ عنوان الكتاب يُجلّي الهدف الرئيس من هذا المؤلَّف، ويُفصّل مقصدية ابن المرزبان؛ ناهيك عن طرافته وغرابته؛ التي تُفصح عن سخرية وتهكّم؛ تجاه أفراد يتصفون بصفات تجعلهم أقل قدرٍ من الكلاب، فالعنونة تتسم بالسخرية والنقمة على الواقع آنذاك.

4. مرتكزات تفضيل الكلاب:

1.4. المفاضلة بين الكلب والإنسان:

اعتمد ابن المرزبان في تفضيله على ركيزة أوّلى؛ تتجلّى للمتلقي من خلال عقد مقارنة بين الكلاب والبشر، وهي مفاضلة تخرج عن حدود المعقول؛ إذ لم تتم بين شيئين تجمعهما روابط محددة، بل جاءت بين الكلاب والبشر، فمع التفضيل القطعي لبني آدم؛ الوراد في القرآن الكريم؛ إلّا أنّ أفراد من هذا الجنس يتصرفون بشكلٍ يخرجهم من دائرة البشرية، وعليه توفّرت لابن المرزبان أمثلة؛ تدعم نظرته تجاه هؤلاء الأفراد، وعليه أورد ابن المرزبان الأمثلة الدالة على علو الكلب، وسموه على الإنسان، وهي النحو الآتي:

يقول ابن المرزبان: "وأعلم أعزَّكَ الله أن الكلب لِمن يقتنيه أشفق من الوالد على ولده والأخ الشقيق على أخيه وذلك أنّه يَحرس ربَّه ويحمي حريمه شاهدا وغائبا ونائما ويقظانا لا يقصِّرُ عن ذلك وإن جَفوه ولا يخذُلهم وإن خذلوه"[36].

يتبدّى للمتلقي أنّ ابن المرزبان يرفع شأن الكلب في صفتين، هما:

1-الخوف: وهي صفة تتجاوز الخوف على النفس إلى التضحية بالنفس؛ خوفًا من فقدان من يربيه.

2-الحماية: حرصه، وحراسته، ويقظته، وهذه السمة لا تتأثر مهما ساءت المعاملة من قبل صاحب الكلب.

ويقول في موضع آخر: "قال صلى الله عليه وسلم: "أيعجز أحدكم أن يحفظ أخاهُ المسلمَ في نفسهِ وأهلهِ كحفظ هذا الكلبِ ماشيةَ أربابه"؟[37].

يورد ابن المرزبان هذه القصة؛ ليصل إلى عقد مفاضلة بين الكلب والإنسان، فالسخرية تتجلّى في عجز ثلة من الأفراد عن حفظ إخوتهم مثل حفظ الكلب، فالكلب يتفوق في صفة الأمانة.

ثمّ يوردُ قول الشعبي (ت 103هـ/721م): "خير خصلةٍ في الكلب أنّه لا ينافقُ في محبَّته وقال ابن عباس رضي الله عنهما كلبٌ أمين خيرٌ من إنسانٍ خؤونٍ"[38]، وفيها جزم بانتفاء صفة النفاق عن الكلب، فيعلو شأن الكلب على الإنسان في هذه الصفة.

ثمّ يقول-رواية عن غيره-: "رأيت مالك بن دينار ومعه كلب فقلت ما هذا؟ هذا خير من جليس السوء"[39]، وفي هذه الرواية نفي سوء المجالسة عن الكلب، ممّا يجعله في مقام النديم؛ الذي لا يُكدّر صفو صاحبه.

وفي نصٍّ شعري جاء على لسان الحسن بن عبد الوهاب؛ يذُّم فيه الصديق، ويمدح الكلب[40]، فتُفصح الأبيات الشعرية عن الصفات التالية:

1-النصرة.

2-الوفاء.

3-الحماية.

وفي موضع آخر ينقل كلاما قاسيًا، فيقول "وروي عن بعضهم أنه قال الناس في هذا الزمان خنازير فإذا رأيتم كلبا فتمسكوا به فإنه خير من أناس هذا الزمان"[41]، وفي هذا التعميم إجحاف في حقّ الإنسان؛ لذا يعمد إلى التأكيد على أن الرواية جاءت بطريقة مباشرة، إلّا أنّها ترفع من شأن الكلب.

ويؤكّد ابن المرزبان على فضل الكلب حينما أورد قصة نديم الحارث بن صعصعة؛ الذي خانه مع زوجته، فبرز الكلب في ثوب الراعي الأمين؛ الذي لا يخون صاحبه، فقتل هذا النديم[42]، ثمّ يورد البيتين التاليين:

فلَلكلبُ خيرٌ من خليل يخونني ... وينكِحُ عرسي بعد وقت رحيلي

سأجعلُ كلبي ما حييتُ منادِمي ... وأمنحُه وُدِّي وصفوَ خليلي

ولا يقف ابن المرزبان عند حدود المفاضلة، فيغيب الإنسان في القصتين[43] التي أوردهما، فالأولى: كانت بين عمر بن الخطاب–رضي الله عنه–وبين الأعرابي، والأخرى بين ابن عمر–رضي الله عنه–وبين أعرابي آخر، وكلا الأعرابيين قالا عن كلبهما: نِعمَ الصاحب، فحكم الإعرابيين لم يأت إلّا قائما على المعطيات التالية:

1–الشكر مع كلّ عطاء: يتفق الأعرابيان على هذه الصفة.

2–الصبر على قلة أو منع العطاء: يتفرّد أحد الأعرابيين ببيان هذه الصفة في كلبه.

3–كتمان السّر: يغلو الأعرابي الآخر في تمجيد كلبه؛ إذ يجعله مستودعا للسّر.

فكانت المعطيات سببًا في جواب عمر بن الخطاب، وابن عمر رضي الله عنهما؛ إذ أيدا الاحتفاظ والتمسّك بهذا الصاحب[44].

ثمّ يورد ابن المرزبان قصة الفضل بن يحيى مؤكّدًا على غياب الإنسان في حضور للكلب؛ الذي يتقمّص دور النديم، فتفضيل الفضل بن يحيى للكلب؛ جاء مبنيًا على:

1–عدم صدور الأذى من الكلب.

2–منع الأذى الآخرين، وهو يقصد البشر والحيوانات.

3–الشكر على كلّ عطاء وإن كان قليلا.

4-حماية الكلب له أثناء نومه[45].

فالطبائع البشرية تتغيّر، وتختلف وفق الزمن، وأحداثه "فيعلو البعض بأخلاقه، وينحدر آخرون فلا يميّزهم عن البهائم إلّا ما يرتدونه من ثياب ساترة لأجسادهم، بينما يتجرّدون عن الفضيلة ويتنافسون على الرذيلة، فتنافسهم البهائم في أخلاقهم وتتفوّق عليهم"[46]، وهذا التغيّر يقابله ثبات في الطبيعة عند الكلاب.

2.4. تفرّد الكلب بالصفات، ومنزلته:

يحكم ابن المرزبان على تفرّد الكلب بصفاتٍ؛ لا يُرائي فيها، وهي على النحو الآتي:

1-النصح: "وانصح لله تعالى كنصح الكلب لأهله فإنّهم يُجيعونه ويضربونه ويأبى إلا أن يحوطهم نصحا"[47]

2-نظرة الودّ: "قال الأحنف بن قيس: إذا بصبص الكلبُ لك فثق بودٍّ منه ولا تثق ببصابصِ الناس فرُبَّ مبصبصٍ خوَّان"[48].

3-صدق المشاعر: يتبدّى في ترحيب بصاحبه، وترحيبه بالضيف[49].

4-حسن الجوار: يظهر في عدم الأذى، وانتظار العطف ممن يجاورهم[50].

5-حفظ الودّ: لا ينسى الكلب فضل الآخر.

6-الوفاء: وهي صفة معروفة عند الكلب.

7-سهرها بالليل: فيقارن بين سهرها وسهر الملوك، ويجعل الرابط الحرص على حماية الآخرين، فالسهر -كما ينقل ابن المرزبان-خصلة ملوكية[51].

8-الملازمة.

9-العون.

10-الحماية.

أمّا في جانب علو منزلة الكلب، فيُبيّن أن منزلة الكلب العالية؛ تتجلّى في:

1- ذكر الكلب في القرآن الكريم، والحديث، والأشعار، والأمثال، واستعماله في الطيرة والفأل، واشتقاقات الأسماء، مع التأكيد على أنّ وروده سواء أكان في جانب الخير أم في جانب الشّر، هو دلالة على مكانته[52].

2-إيراده قصة الملك الذي دنا من كلب الصيد الخاص به، فيُعبّر عن حبه بعبارة "إيه فدتك نفسي"[53]، وهي عبارة تُجلّي ولع الملك بهذا الكلب.

3-النساك والكلاب: منافع الكلب تعلو على أضراره، فيؤكّد على أنّ أهل الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، لم ينكروا على من يتّخذ كلبًا في داره، ومن هؤلاء الملوك، ناهيك عن إنزال العقوبة بمن يقتل كلبًا؛ إلّا إن كان لعلة بيّنة.

4-تخيّر الكلب للمكان النظيف، والرفيع، فيبحث عن بساط أو وسادة[54].

5. قصص عن الكلاب:

يورد ابن المرزبان في كتابه قصصًا عن الكلاب، ومواقفها العجيبة مع أصحابها، ومنها: قصة الكلب الذي أسهم في نجاة صاحبه؛ بعد أن دُفن حيًّا[55]، وهي قصة وردت في كتاب الحيوان[56]للجاحظ (ت 255هـ)، وعن هذه القصة يقول ابن المرزبان "يدل على وفاء طبعي وأَلِف غريزي ومحاباةٍ شديدة وعلى معرفة وصبر وكرم وغناء ومنفعة تفوق المنافع"[57]، والقصص[58] التي أوردها ابن المرزبان يمكن بيانها وفق منطلقين هما:

-منطلق نابع من الكلب، وهي على النحو الآتي:

1-الوفاء: يندرج تحته الحماية، وحفظ الودّ، والإخلاص، فيتجلى في القصص التالية:

عنوان القصة	الصفحة	عنوان القصة	الصفحة

كلب يكشف عن قاتل وجثة سيده	88	كلب يهاجم خصم صاحبه	107
كلب يخلص الملك من الموت	91	كلب الحسن بن مالك	113
كلب يحمي قافلة الحج	94	كلب مالك بن الوليد	114
كلب يحمي صاحبه ممن أراد خنقه	105	كلب يحمي طفل صاحبه	119

الجدول رقم (1)

2-المنفعة: وتبرز في القصص التالية:

عنوان القصة	الصفحة	عنوان القصة	الصفحة
كلبة ترضع طفل أصحابها	96	كلب يُنقذ صاحبه من الوادي	98
كلب يقوم بدور ساعي البريد	101	لص يتوب على يد كلب	103

الجدول رقم (2)

-منطلق نابع عن الإنسان، ويُجلّي قيمة الكلب من خلال تعلّق أصحابها بها، وهي على النحو الآتي:

عنوان القصة	الصفحة	عنوان القصة	الصفحة
أحبُّ لحبها سود الكلاب	109	قصيدة تنفي السلب والسب عن الكلب	110
كلب يُدعى موق	111	فجعت بكلبها مسمار	118

الجدول رقم (3)

فهذه القصص تجلّي صفات عدة؛ يمكن إجمالها في الشكل الآتي:

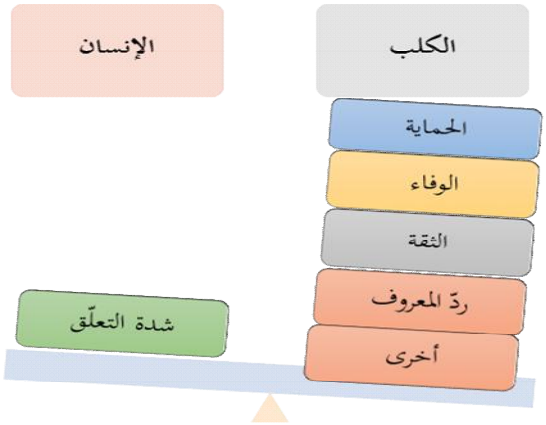

الشكل رقم (2) صفات الكلب والإنسان الواردة في القصص

يُبيّن الشكل أنّ القصص الواردة ترفع قيمة الكلب، فتكشف عن خِصالٍ كثيرة، منها ما هو معلوم، مثل: الوفاء، والحماية، حفظ المعروف، والثقة، والودّ، ومنها ما يتجاوز المعلوم؛ إلّا أنّه ورد في القصص، مثل: إرضاعها لطفل أصحابها، وقيامها بدور ساعي البريد، ومع هذه الخصال المتعددة للكلب، يتبيّن أنّ القصص لا تخلو عن صفات بشرية تجاه الكلاب، مثل: الإحساس بالفقد، والفجيعة على موت الكلب؛ إلّا أنّها لا توازي ما يُقدّمه الكلب لأصحابه.

الخاتمة:

دافع التأليف الذي ذكره ابن المرزبان في مقدّمة كتابه لا يلغي أهمية الدراسة، فالدراسة كشفت عن اعتماد ابن المرزبان على قصص ومواقف؛ تُبيّن ندّيّة الكلب، فلم يكن ابن المرزبان يهتم بالتبويب بقدر اهتمامه في رفع قيمة الكلب، وتفضيله على كثير من البشر، كما أنّ تفضيل الكلاب جاء في مقارنة مع الذكور، ولعلّ هذا الأمر يعود إلى طبيعة العصر، فغابت النساء عن هذه المفاضلة؛ لذا جاء العنوان موسومًا بـ"تفضيل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب".

يتبيّن أنّ ابن المرزبان يتكئ في تفضيله على مرتكزين، هما:

1-سرد القصص التي تُبرز المفاضلة بين صفات يمتلكها الإنسان والكلب، فجاء الفضل للكلب من خلال تفوّقِهِ في هذه الصفات؛ مثل: الشفقة، وحفظ المعروف، ....

2-بيان الصفات التي يتفرّد بها الكلب دون الإنسان، ولعلّ أبرزها السهر، وقلة النوم، حتى باتت تشابه صفة الملوك، ومن يسهر على أمرٍ يهمه....

في حين جاءت القصص الواردة في الكتاب؛ تقوم بدور الداعم لهذا الرأي، فالتفضيل لم يأت عبثًا، فابن المرزبان سعى إلى إثبات وجهة نظره من خلال سرد القصص المتنوعة. فما نقله ابن المرزبان من قصص؛ يُجلّي ندّية الكلب حتى بات منافسًا للإنسان بل متفوقًا عليه، فالكلب لا تتغيّر طبيعته مهما تغيّر الزمن، وهي ميزة أدّت إلى تفضيله وفق توجّه ابن المرزبان.

يمكن القول بأنّ دافع التأليف لا يمكنه إخفاء دوافع أخرى؛ أسهمت في خروج هذا المؤلَّف؛ إذ يرى الباحث أنّ ثمة دافعٍ يتجاوز ذلك الدافع الذي أورده ابن المرزبان، وهو الاغتراب، فعدم القدرة على التعايش مع هذا الواقع، وتتبع مساوئ البشر؛ يكشف عن حالة من الاغتراب تعتري ابن المرزبان.

أخيرًا توصي الدراسة بتتبع مؤلّفات ابن المرزبان من خلال تسليط الضوء على الاغتراب، والجانب النفسي لديه.

الهوامش

[1] هناك اختلاف في كنيته ونسبه، وقف عليها بالتفصيل محمد الأعرجي؛ يُنظر: ابن المرزبان، أبو بكر محمد، ذمُّ الثقلاء، تحقيق: محمد حسين الأعرجي، منشورات الجمل، كولونيا، ألمانيا، ط1، 1999م، ص11-13

[2] الحموي، ياقوت، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1993م، الجزء السادس، ص2645-2646.

[3] الزركلي، خير الدين بن محمود، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط15، 2002م، الجزء السادس، ص115.

[4] جريدة الاقتصادية، (2017م)، تفضيل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب، جريدة الاقتصادية: aleqt.com/2017/05/05/article_1182171.html.تم الاطلاع في يوم الأحد 22-5-2022م.

[5] المرجع نفسه.

[6] ابن المرزبان، أبو بكر، تفضيل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب، تقديم ودراسة وتحقيق: عصام محمد شبارو، دار التضامن للطباعة وللنشر والتوزيع، 1992م، ص28

[7] ابن المرزبان، أبو بكر، (1909م)، فضائل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب، لويس شيخو، مجلة المشرق، العدد (7)، يوليو، ص 515-533، نقلًا عن أرشيف الشارخ للمجلات الأدبية والثقافية العربية: https://archive.alsharekh.org/Articles/108/8561/176567 تمّ الاسترداد في يوم الأحد 23-10-2022م.

[8] ابن المرزبان، مصدر سابق، ص 28.

[9] المصدر نفسه، ص46.

[10] سورة الأعراف: آية 176.

[11] سورة الكهف: آية 18.

[12] سورة الكهف: آية 22.

[13] سورة المائدة: آية 4.

[14] ابن قتيبة، أبو محمد بن عبد الله، تأويل مشكل القرآن، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 2007م، ص216.

[15] الترمذي، أبو عيسى محمد، سنن الترمذي، حديث (1489)، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1996م، الجزء الثالث، ص154.

[16] المصدر نفسه، حديث (2804)، الجزء الرابع، ص498.

[17] النيسابوري، أبو الحسين مسلم، الجامع الصحيح، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، 1955م، الجزء الأول، ص 243.

[18] الجاحظ، أبو عثمان عمرو، الحيوان، تحقيق: عبد السّلام هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، 1965م، الجزء الأول، ص 226.

[19] إبراهيم، عبد العزيز، اللعين المنقري: حياته وما بقي من شعره، العرب، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، المجلد (44)، العدد (7-8)، 2009م، ص473.

[20] الجهم، علي، ديوان علي بن الجهم، تحقيق: خليل مراد، وزارة المعارف، السعودية، ط1، 1980م، ص 117.

[21] الشافعي، أبوعبد الله محمد، ديوان الإمام الشافعي المسمّى "الجوهر النفيس في شعر محمد بن إدريس، تعليق وتقديم: محمد إبراهيم سليم، مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع، القاهرة، د.ت، ص49.

[22] عبد الستار، عاطف، صورة "الكلب" في التراث العربي الإسلامي: بين رحابة المعنى وحدود الممارسة الفنية، مجلة آفاق الثقافة والتراث، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، السنة الثامنة والعشرون، العدد (112)، 2020م، ص38.

[23] نفسه.

[24] نفسه ص 38-39.

[25] موقع المرسال، سليم، ريهام، مركز السلوقي العربي في أبوظبي **2017/2/7**م، almrsal.com/post/448287.، تم الاسترجاع في يوم 2022/11/1م.

[26] استدرك محمد فجال على الأرجوزة سبعة وثلاثين اسمًا، يُنظر: السيوطي، جلال الدين، أرجوزة: التبري من معرّة المعرّي، دراسة وتحقيق: محمد محمود فجال، المجلة العلمية، كلية الآداب، جامعة طنطا، المجلد 2016، العدد (29)، ص567.

[27] ابن منظور، لسان العرب، مادة (ع ن ا)، عناية: أمين محمد عبد الوهاب، ومحمد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، 1999م، الجزء التاسع، ص 447.

[28] العرفي، وليد، طَيْفُ العَنونةِ ودلالاتهُ في شعرِ: مُحَمَّد سعيد العتيق، مجلة جيل الدراسات الادبية والفكرية، مركز جيل البحث العلمي، لبنان، العام السابع، العدد 65، نوفمبر 2020م، ص84

[29] حمداوي، جميل، السيمولوجيا والعنونة، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، المجلد 25، العدد 3، 1979م، ص 96.

[30] يُنظر: حميد، رضا، الخطاب الحديث من اللغوي إلى التشكيل البصري، مجلة فصول، مجلد15، عدد 2، 1996م ص99

[31] يُنظر: يحياوي، رشيد، الشعر العربي الحديث: دراسة في المنجز النصي، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، د.ط ،1998م، ص 110.

[32] خليفة، حاجي، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، المجلد الثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ط، د.ت، ص 1279م.

[33] شيخو، مرجع سابق، ص515.

[34] ابن منظور، مصدر سابق، مادة (ف ض ل)، الجزء العاشر، ص280.

[35] سورة الإسراء: آية 70.

[36] ابن مرزبان، مصدر سابق، ص 53.

[37] لم يتوفّر للباحث نصًّا يؤكّد صحة هذه الرواية سوى ما ورد في كتاب ابن المرزبان: ص55، وكتاب الحيوان للدميري، الجزء الثاني، ص227، ولا يمكن الحكم بصحتها.

[38] ابن المرزبان، مصدر سابق، ص 57.

[39] نفسه، ص 58.

[40] نفسه، ص 60.

[41] ابن المرزبان، مصدر سابق، ص 65.

[42] نفسه، ص 115.

[43] يرى شبارو أنّ القصة واحدة، يُنظر: المصدر نفسه، ص 56.

[44] ابن المرزبان، مصدر سابق، ص 56.

[45] نفسه، ص 58-59.

[46] صحيفة العربي الجديد، الخلف، مسعود، (2018/1/19م)، تفضيل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب: https://www.alaraby.co.uk

[47] ابن المرزبان، مصدر سابق، ص 54.

[48] نفسه، ص57.

[49] نفسه، 66-68.

[50] نفسه، ص82.

[51] نفسه، ص 108.

[52] نفسه، ص 74-75.

[53] نفسه، ص 70-71.

[54] نفسه، ص 78.

[55] نفسه، ص 85-87.

[56] الجاحظ، الحيوان، مصدر سابق، الجزء الثاني، ص 122-123.

[57] ابن المرزبان، مصدر سابق، ص 87.

[58] عناوين القصص من وضع عصام شبارو، يُنظر: المصدر نفسه، ص 33.

المصادر والمراجع:

- إبراهيم، عبد العزيز، اللعين المنقري: حياته وما بقي من شعره، العرب، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، المجلد (44)، العدد (7-8)، 2009م.

- ابن المرزبان، أبو بكر محمد، ذمُّ الثقلاء، تحقيق: محمد حسين الأعرجي، منشورات الجمل، كولونيا، ألمانيا، ط1، 1999م.

- ابن المرزبان، أبو بكر، (1909م)، فضائل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب، لويس شيخو، مجلة المشرق، العدد (7)، يوليو، ص 515-533، نقلًا عن أرشيف الشارخ للمجلات الأدبية والثقافية العربية: https://archive.alsharekh.org/Articles/108/8561/176567

- ابن المرزبان، أبو بكر، تفضيل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب، تقديم ودراسة وتحقيق: عصام محمد شبارو، دار التضامن للطباعة وللنشر والتوزيع، 1992م.

- ابن قتيبة، أبو محمد بن عبد الله، تأويل مشكل القرآن، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 2007م.

- ابن منظور، لسان العرب، عناية: أمين محمد عبد الوهاب، ومحمد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، 1999م، الجزء التاسع.

- الترمذي، أبو عيسى محمد، سنن الترمذي، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1996م، الجزء الثالث والرابع، ص154.

– الجاحظ، أبو عثمان عمرو، الحيوان، تحقيق: عبد السّلام هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، 1965م، الجزء الأول.

– جريدة الاقتصادية، (2017م)، تفضيل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب، جريدة الاقتصادية: aleqt.com/2017/05/05/article_1182171.html. تم الاطلاع في يوم الأحد 22-5-2022م.

– الجهم، علي، ديوان علي بن الجهم، تحقيق: خليل مراد، وزارة المعارف، السعودية، ط1، 1980م.

– حمداوي، جميل، السيمولوجيا والعنونة، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، المجلد 25، العدد 3، 1979م.

– الحموي، ياقوت، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1993م، الجزء السادس.

– حميد، رضا، الخطاب الحديث من اللغوي إلى التشكيل البصري، مجلة فصول، مجلد15، عدد 2، 1996م.

– خليفة، حاجي، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، المجلد الثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ط، د.ت.

– الزركلي، خير الدين بن محمود، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط15، 2002م، الجزء السادس، ص115.

– السيوطي، جلال الدين، أرجوزة: التبري من معرّة المعرّي، دراسة وتحقيق: محمد محمود فجال، المجلة العلمية، كلية الآداب، جامعة طنطا، المجلد 2016، العدد (29).

– الشافعي، أبوعبد الله محمد، ديوان الإمام الشافعي المسمّى "الجوهر النفيس في شعر محمد بن إدريس، تعليق وتقديم: محمد إبراهيم سليم، مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع، القاهرة، د.ت.

– صحيفة العربي الجديد، الخلف، مسعود، (2018/1/19م)، تفضيل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب: https://www.alaraby.co.uk

– عبد الستار، عاطف، صورة "الكلب" في التراث العربي الإسلامي: بين رحابة المعنى وحدود الممارسة الفنية، مجلة آفاق الثقافة والتراث، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، السنة الثامنة والعشرون، العدد (112)، 2020م.

– العرفي، وليد، طَيْفُ العَنونةِ ودلالاتهُ في شعرِ: مُحَمَّد سعيد العتيق، مجلة جيل الدراسات الادبية والفكرية، مركز جيل البحث العلمي، لبنان، العام السابع، العدد 65، نوفمبر 2020م.

– موقع المرسال، سليم، ريهام، مركز السلوقي العربي في أبوظبي:.almrsal.com/post/448287
– النيسابوري، أبو الحسين مسلم، الجامع الصحيح، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، 1955م، الجزء الأول.
– يحياوي، رشيد، الشعر العربي الحديث: دراسة في المنجز النصي، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، د.ط، 1998م.